

الاحتجاجات في الجامعات.. مزاج شبابي جديد

الكاتب



ناصر زيدان

د. ناصر زيدان

مهما قيل عن الاحتجاجات الواسعة التي شهدتها الجامعات الأمريكية؛ لا يمكن إنكار كونها تعبيراً عن مزاج شبابي جديد ينطلق من فهم مختلف لما يجري في منطقة الشرق الأوسط، وينقض الصورة التي تروج لها الدعاية الإسرائيلية التي تلاقي مساندة واسعة من الدوائر والجهات النافذة في الأوساط السياسية والاقتصادية والمالية والإعلامية، ولغالبية هؤلاء جداول أعمال نفعية أحياناً، وإيديولوجية أحياناً أخرى، ولا تتلاقى مع الوقائع الدامغة لحقائق الصراع في الشرق الأوسط، لا سيما فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، التي هي قضية حق لشعب مضطهد ومشرّد، سُلّبت أرضه بالقوة، وهو محروم من إقامة دولته المستقلة كاملة السيادة كما لكل شعوب الأرض.

وملامح وجود مزاج جديد لجموع هائلة من طلاب أعرق الجامعات الأمريكية تأكدت من خلال مجموعة من المظاهر الواضحة، أولها شمولية التحركات بحيث إنها حصلت في أكثر من 47 جامعة من أبرز المؤسسات التعليمية الراقية على المستوى العالمي، وهي توسّعت لتنتشر في أكثر من جامعة على المستوى العالمي، خصوصاً في أوروبا. ولأن المشاركة في هذه الاحتجاجات والاعتصامات لم تقتصر على طلاب من جذور عربية أو إسلامية - كما حاولت الدعاية الإعلامية الإسرائيلية تصويرها - بل شملت طلاباً أمريكيين من أصولٍ مختلفة ومتنوعة دينياً وعرقياً وحزبياً.

وقد فشلت الدعاية المناهضة للتحركات في تشويه صورة التظاهرات الكبيرة من خلال دسّ بعض الشعارات والأعلام الحزبية بين صفوف المعتصمين للإيحاء بأن منظمات محددة تقف وراء التحرك، وتؤكد وجود رأي عام مؤثر يحتضن التظاهرات الطلابية، ولأسبابٍ متعددة، قد يكون أهمها القنوط الذي يصيب شرائح شعبية كبيرة من الجمهور الأمريكي - والطلابي على وجه الخصوص - من إغداق التمويل بمبالغ كبيرة من ضرائب الشعب الأمريكي لإسرائيل، وتقديم

أحدث الأسلحة الفتاكة لجيشها، وهو يستعمل غالبيتها ضد المدنيين العُزّل، ويدمر المستشفيات والمدارس والجامعات ودور العبادة، بينما الطلاب الأمريكيون يدفعون مبالغ طائلة لتسديد أقساط جامعاتهم، ويرون نتائج سنوات من عملهم بعد التخرُّج لتسديد ديون هذه الأقساط الممنوحة لهم بفوائد من البنوك.

والوعي العام لدى عدد كبير من جمهور الطلاب الأمريكيين يتمدد إلى مساحات فكرية وثقافية جديدة، كانت مقفلة على هؤلاء، بسبب الدعاية السامة التي تستخدمها حركات متطرفة تخدم السياسة الإسرائيلية، خصوصاً موضوع المعاداة للسامية، وهو ما تلحظه بعض القوانين الأمريكية كونه شكلاً من أشكال التمييز العنصري المرفوض، بينما شعار «معاداة السامية» الذي أطلقه الباحث الألماني فيلهلم مار في منتصف القرن التاسع عشر لمواجهة العداء الذي كان موجهاً ضد اليهود في أوروبا، فهم على غير حقيقته فيما بعد، لأن الشعوب السامية وفق ما جاء في سفر التكوين، هي التي تتحدث اللغات السامية من العرب والعبرانيين والآشوريين وغيرهم، وليسوا اليهود تحديداً كما تحاول الدعاية الإسرائيلية الإشارة إليه للاستفادة السياسية منه. والعرب على وجه الخصوص هم أبرز الشعوب السامية، وهم ضد معاداة السامية، ولا يقبلون رفع هذا الشعار على الإطلاق، بينما يحاول البعض تحوير تفسيره لكي يطول في ضرره الشعوب العربية أيضاً.

وعلى الضفة الأخرى من مجرى الهياج الجامعي المنقطع النظير في أمريكا نرى تغييرات أخرى لها طابع استراتيجي، كما تحمل أبعاداً مستقبلية، ومنها تنامي التيار اليساري المتشدّد داخل صفوف الحزب الديمقراطي، وهؤلاء يعترضون على سياسة الرئيس جو بايدن تجاه ما يحصل في فلسطين، ولا يوافقون على كون الضربات الإسرائيلية التي أسفرت عن سقوط ما يزيد على 120 ألفاً بين قتل وجريح من الفلسطينيين هي ردة فعل إسرائيلية على عملية 7 أكتوبر 2023، بل إنها تخفي خطة تصفية عرقية لشعب بكامله، ولدفع الفلسطينيين إلى مغادرة بلادهم، كما أنها تضع الولايات المتحدة الأمريكية في موقف العاجز عن وقف العدوان الذي ترتكب فيه جرائم دولية كبيرة مخالفة لمندرجات القانون الدولي الإنساني الذي ساهمت في وضعه واشنطن، لا سيما تحريم الإبادة الجماعية، واستخدام أسلحة ممنوعة، وتجويع المدنيين، وقصف المستشفيات وفرق الإغاثة. وخطاب الرئيس جو بايدن الذي تناول فيه ما يجري من تحركات طلابية تواجهها قوات الأمن بعنف في بعض الجامعات أمسك العصا من منتصفها، لأنه يعرف تماماً أن ما يجري ليس محاولة من المنظمات المتطرفة لتعميم الفوضى كما تقول الدعاية المتعاطفة مع إسرائيل، بل انتفاضة طلابية عارمة، لا يمكن تحريكها بدوافع مشتبه فيها، وهي ناتجة عن قناعة راسخة لرأي عام واسع يعتبر أن ما يجري في فلسطين ظلم واضح، ومذبحة ضد الشعب الفلسطيني يجب أن تتوقف. وبايدن الذي أعطى الحق للطلاب في التعبير عن الرأي الذي تكفله القوانين الأمريكية، قال أيضاً لا مكان لمعاداة السامية في بلاده، ولم يُدن تصرفات الشرطة بحق بعض المتظاهرين من الطلاب، وهي تجاوزت في قمعها كل الحدود، وفي هذا الموقف يدرك بايدن أنه قد يحصد خسائر كبيرة في الانتخابات القادمة إذا ما استمرّ في سياسته الحالية في تشجيع العدوان والتعمية على الجرائم التي ترتكبها إسرائيل.

من الواضح أن تغييرات تحصل في مزاج الرأي العام الأمريكي خصوصاً والغربي عموماً، ونتائج الانتخابات المحلية في بريطانيا أكدت هذه الوقائع، وشرائع شعبية كبيرة وجهت صفة لحزب المحافظين بالصناديق، ومن خلال المقاطعة، لأنه ساند بقوة الموقف الإسرائيلي.